الفصل الثاني:

تشكل قرية السلط مجتمعاً مزدهراً يزيد عدد سكانه عن عشرة آلاف نسمة نصفهم من المسيحيين، وهي تقع في منطقة غنية مشهورة بزراعة العنب والمشمش، وقد تحدث الجغرافي العربي أبو الفداء مادحاً حدائقها الوفيرة في القرن الرابع عشر الميلادي، وثمة قلعة مهدمة لا أعلم تاريخ بنائها على الهضبة الواقعة أعلى البيوت ذات الأسطح المتعنقدة، والعرف السائد بين السكان أن البلدة قديمة جداً. ويقول المسيحيون: إن السلط شهدت أولى التجمعات المسيحية. كما إن هناك أسطورة تقول: إن السيد المسيح قد ألقى موعظته الأولى هنا. وعلى الرغم من أن المشمش لم تظهر براعمه بعد إلا أن أغصان أشجار الوادي العارية قد أبدت ابتساماتها الغنية، أثناء مروري به مع حبيب فريز الذي كان يركب فرسه إلى جانبي ليدلني على الطريق، كان له ملكيته من بساتين المشمش ومن كروم العنب، وقد ابتسم بلطف كرجل نبيل عندما أطريتها. ومن يستطيع أن لا يبتسم في مثل هذا الصباح المبهج، فالشمس مشرقة، والأرض متألقة بالصقيع والهواء يطلق موجات شفافة من الضوء الذي يظهر بعد يوم شتوي ماطر، ولم يكن مجرد الإحساس بالإرادة الطيبة ما ألهمني هذه الكلمات، ولكن مسيحيي السلط ومادبا أذكياء ومجدون ويستحقون المديح، فخلال السنوات الخمس التي مضت على زيارتي لهذه المنطقة دفعوا بشريط الأرض المزروع حول المدن مسيرة ساعتين على ظهر الجواد إلى الشرق وحسنوا قيمة الأرض على نحو حاسم بحيث عندما مرت سكة حديد الحجاز منها وضع السلطان يده على طريق عظيم يمتد جنوباً

١٥ ـ أحد عرب قبيلة العدوان يحرس محصوله

حتى معان قاصداً تحويلها إلى أراضي أملاك دولة زراعية. وسوف تهب له ولقاطنيها الثروة العظيمة بحيث إنه لو كان حاكماً مختلفاً لكان إقطاعياً جيداً. بعد نصف ساعة من السلط تركني حبيب وعهد بي إلى وكيله الزراعي يوسف وهو رجل قوي البنية شجاع سار إلى جانبي وقناته فوق كتفه. ورحلنا عبر وديان واسعة غير مشجرة غير مسكونة وخالية من الأراضي المزروعة تقريباً، حول رأس سهل البلقا ومروراً بوادي سير المفتوح الذي يسير فيه الراكب بين أشجار البلوط طيلة الطريق حتى الغور. كما كان من الممكن أن يكون هناك أشجار على الهضاب لو سمح لها الفحامون بالنمو. ومررنا بعدد من الأجمات الكثيفة القزمة من البلوط والزعرور.. ولكني كنت أرغب لو لم يتغير شيء من الأراضي الفاتنة شرقي الأردن، بعد جيل أو جيلين من الآن سوف تزرع على نحو عميق بالحبوب وسوف تتناثر فوقها القرى وسوف يدير ماء وادي سير الطواحين، وربما سيكون هناك طرقات، وحمداً لله أنا لن أكون موجودة لأرى هذا [1]. وفي زماني سوف تبقى أراضي العلا منطقة بهيجة كما سبق، وقال عنها عمر بن الخطاب: شريط العشب المنتشر ذاك الذي يفصل الصحراء عن

(١) لقد تحدثت المؤلفة هذا الحديث عام ١٩٠٧ كما هو واضح من تاريخ طبع الكتاب والحقيقة أن العمران قد امتد إلى أبعد بكثير مما حلمت المؤلفة.

الأرض المزروعة [1]. وسوف تبقى هذه الأراضي خالية من القرى من أجل راع متفرد يقف إلى جانب قطيعه وبيده بارودة طويلة، وعندما أقابل خيالاً يسير فوق هذه الهضاب وأسأله من أين جاء فإنه سوف يجيب (الله يوسع عليك الدنيا، من عند العرب..).

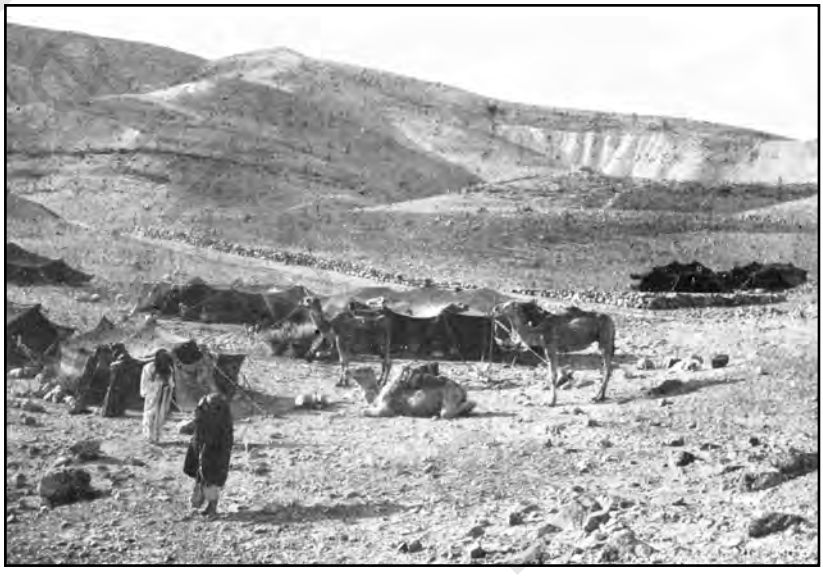

١٦ ـ مضارب بدو قرب البحر الميت

كان ذلك هو ما نحن ذاهبون إليه، إلى العرب، في الصحراء لا تستعمل كلمة (البدو) كل سكان الخيام هم عرب (بإيقاع حلقي جميل) وكذلك لا تستعمل كلمة (خيمة) بل بيت، أو بيت شعر إذا استلزم الأمر بعض الشرح. ولكن العادة أن يقولوا بيتاً فقط أو داراً باستخفاف متعال بأي كلمة يمكن أن تقال تعبيراً عن البيوت المكونة سقوفها من شعر الماعز. ومن الممكن أن يطلق عليك اسم عربي حتى لو كنت تعيش في بيوت حجرية، فسكان السلط

(١) لا أذكر أنني سمعت هذا القول شعراً أو نثراً لعمر بن الخطاب. (المترجم).

يصنفون ضمن قبائل عرب البلقاء مع قبائل العبادة والدجا والحسانية وغيرها تشكل جميعاً قبيلة العدوان العظيمة. وتتنازع قوتان السيطرة على الصحراء السورية، وهما قبيلة بني صخر وقبيلة عنزة. وهناك صداقة تقليدية بينهما وبين عرب البلقاء ولكن هذه الصداقة تفسدها أحياناً بعض الحوادث المؤسفة. ولعل هذا هو السبب في أنني سمعت في هذه المناطق أن عنزة هي الأكثر عدداً، ولكن رجالها أقل شجاعة من الصخور. وثمة معرفة مقرونة

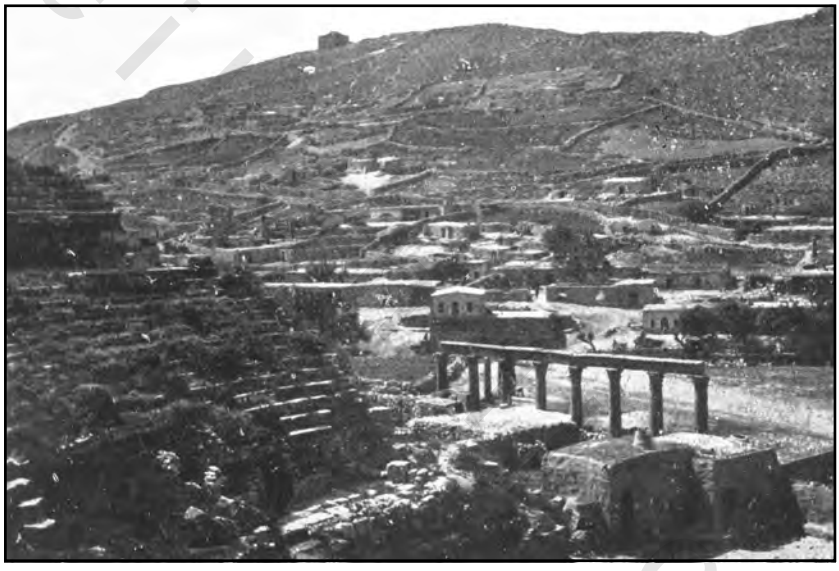

١٧ ـ مسرح عمان

بالاحترام بيني وبين أحد أبناء طلال الفايز شيخ عشاير الصخور. وكنت قد قابلته قبل خمس سنوات في هذا السهل بعد شهر من الفصل التي تتحرك فيه قبيلتهم من المراعي الشرقية باتجاه الأردن. وكنت أركب آن ذاك بحراسة ضابط شركسي من مادبا إلى المشتى [١]، وكان ذلك قبل أن يقتطع الألمان نقوش واجهة المبنى على شكل شرائح من هذا البناء الرائع.

(١) قصر مبني في العصر الأموي.

كان السهل مغطى بقطعان مواشي الصخور وبيوتهم السوداء وبينما كنا نسير بينهم اتجه نحونا ثلاثة خيالة من أجل اعتراضنا، سمر الوجوه، مسلحون حتى أسنانهم، عدوانيو السمات، وألقوا التحية من بعيد، ولكنهم عندما رأوا الضابط رجعوا ببطء وضحك الشركسي قائلاً: (كان ذاك الشيخ فايز بن طلال.. مثل الأغنام والله مثل الأغنام عندما يقابلون واحداً منا).

أنا لا أعرف عنزة لأن تجمعهم في الشتاء قرب الفرات، ولكن مع الأخذ بالاعتبار اختلافهم مع الصخور، فأنا أتصور إنهم يمثلون القبائل الأكثر نبالة في الصحراء، ويحظى شيوخهم بنو الشعلان بالجاه الأكبر بين شيوخ العشائر، وخيولهم هي أفضل الخيول في الجزيرة العربية، وحتى قبيلة شمر أتباع ابن رشيد يأتون بعدهم محاولين منافستهم بكرم المحتد. وعندما تجاوزنا الأراضي العالية الوعرة الواقعة فوق الغور، دخلنا أرضاً متموجة قليلاً يوجد فيها عدة خرب متناثرة فوقها هنا وهناك، وكان ثمة خربة عند رأس وادي سير ورأينا قبل ربع ساعة من الوصول إليه كتلة معتبرة من الأساسات وصهريجاً كبيراً يدعوه العرب بركة أم العمود، وقد قال يوسف إن هذا الاسم يعود لوجود عمود محاط بالماء في منتصف البركة، وقد تبارى العرب في إطلاق النار عليه حتى كسروه وتناثرت قطعه في قاعها. والتل المجاور لها واسمه تل عميرة مغطى بالخرائب، وأبعد من ذلك تقع اليادودة، ويوجد فيها قبور صخرية منحوتة وأضرحة حجرية ذات أغطية مرمية على طرف الصهريج، وقد تناثرت في كل مشارف الصحراء بقايا أثرية محدودة تعبر عن ماضيها المزدحم بالسكان، بقرى القرنين الخامس والسادس الميلاديين عندما كانت مادبا مدينة مسيحية غنية مزدهرة مع أن هناك بالتأكيد بعض بقايا من العهود السابقة للرومان،

وقد كان يسكن يادوده، ذات القبور مسيحيٌ من السلط وهو أكبر زراع القمح في المنطقة، ويسكن في بيت ريفي على قمة التل، وهو أيضاً واحد من القادمين الجدد النشيطين المنهمكين في توسيع أطراف المناطق المزروعة، في هذا المكان تركنا الأراضي المتموجة وعبرنا إلى حواف سهل غير محدود، وقد اخضر بطبقة من الأعشاب الرقيقة يتخلله تل مستدير أو ظهر جرف مرتفع، ثم يستمر السهل مرة أخرى في الانحدار على نمط مريح للعينين لا يدعو للملل أبداً، تحت أشعة شمس الشتاء الساحرة، وديان متعرجة لينة مغطاة بضباب خفيف، تلال تعلو على نحو محدود لين بحيث تتلقى ضوء الشمس، وفوق كل هذا القبة السماوية التي تقبب الصحراء كما تقبب البحر. كانت الرابية الأولى تدعى تل طناب، ووصلنا إليه بعد مسير تسع ساعات، في الساعة ٥,٣٠ تماماً عند غياب الشمس ونصبنا الخيام على منحدره الجنوبي، كان التل ممتلئاً بالآثار الحجرية، جدران منخفضة من الحجارة المنحوتة على نحو سيء بدون ملاط، صهاريج صخرية، قد صمم بعضها بدون ريب كمستودعات للحبوب وهو ما تستعمل له الآن، وصهريج مفتوح مليء بالتراب. وكان نمرود قد ذهب لزيارة أحد جيرانه المزارعين ولكن أحد رجاله ذهب مباشرة ليخبره بوصولي وعاد على هذا الأساس في الساعة العاشرة تحت ضوء نجوم جليدي، مع العديد من احتجاجات السرور والتأكيدات بأن رغباتي سهلة التنفيذ. وهكذا ذهبت إلى النوم محاطة بسكون برد الصحراء، واستيقظت في اليوم التالي في عالم متألق بأشعة الشمس والآمال المشرقة.

كان أول ما يجب عمله هو إرسال رسول إلى العرب، وبعد المداولة تقرر أن قبيلة الدجا من عرب البلقا هي الأقرب إلى منزلنا وهي الخيار الأفضل

للاتصال. وهكذا أرسلنا رسولاً على وجه السرعة إلى ديارهم، وقضينا الصباح نتفحص التل ونتفرج على كتلة العملات النحاسية التي نبشها محراث نمرود، وقد كانت كلها رومانية، كان بعضها يظهر على نحو معتم ملامح القسطنطينية، وكان بعضها أقدم، ولكن لم يكن بينها ما ينتمي إلى الفترة البيزنطية المتأخرة، أو لأزمان الحروب الصليبية، ولكن طناباً قد هجرت منذ الاجتياح العربي إذ اعتبرت هذه العملات كشواهد [1] واكتشف نمرود المقبرة، ولكننا لم نجد شيئاً في القبور التي يمكن أن تكون قد نهبت في قرون غابرة. كانت منحوتة من الحجارة مثل الصهريج الحجري وعلى مثاله، وكان ثمة قوسان من الحجر الأصم مع فسحات ضيقة فيما بينها تشكل مدخلاً ضيقاً على سطح الأرض. كما كان هناك عدد محدود من بروزات صخرية ناتئة على جوانب الجدران بحيث تشكل مواطئ قدم لأولئك الذين يريدون النزول، تجاويف أو غريفات تشبه الرفوف حول الغرف مصفوفة فوق بعضها، أو هكذا بدا مظهرها. وباتجاه أسفل التل من الجهة الجنوبية ثمة أساسات لبناء يشتبه بأن يكون أثاراً لكنيسة. وعلى كل فإن هذه المكتشفات لا تغني شيئاً بالنسبة ليوم من الاستكشاف. وهكذا ركبنا تحت شمس بعض الظهر الذهبية ساعتين إلى الشمال عبر واد عريض بين مرتفعين وكان ثمة جدارن مهشمة لا تزال

(١) تحاول المؤلفة دائماً الغمز من الحضارة العربية الإسلامية وهي تستعمل دائماً كلمة الاجتياح الذي يقترن بالذهن بالتدمير، وهي في هذه النقطة بالذات تتناقض، فهي تقول إنها لم تعثر على عملات من الفترة البيزنطية المتأخرة، وهناك فارق زمني مقداره قرنين تقريباً ما بين سقوط روما ووراثة بيزنطة أراضي الإمبراطورية الرومانية في جميع ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وبين الفتح الإسلامي وعدم وجود عملات بيزنطية في الموقع دلالة على هجرانه قبل هذا الفتح، ومعروف أن العرب لم يتعرضوا بالأذى لسكان البلاد من المسيحيين على عكس أوربا المسيحية التي أبادت الهنود الحمر الأمريكيين وسكان أستراليا وكثيراً من الجزر التي احتلوها هنا وهناك.

منتصبة في منتصف الوادي. وقد دعا نمرود هذا الأثر باسم قُصيِّرْ السهل (حصن السهل الصغير)[1] وقد كان هدفنا مجموعة من الأبنية في النهاية الغربية يطلق عليها اسم خُريبة السوق. وصلنا في البداية إلى بناء صغير (أبعاده بالأقدام ٤١ × ٣٠,٨ = ١٢٦٢,٨ قدم مربعة) كان الجانب الأطول ممتداً من الشرق إلى الغرب ومطموراً إلى منتصفه في التراب. وكان ثمة ناووسان حجريان يشيران إلى أن الموقع ربما كان بناء مقبرة. وهناك بوابة مقوسة على الجدار الغربي وقد زين القوس بحلية معمارية مسطحة. وفوق مستوى القوس يضيق الجدار من خلال امتداد ارتداد جداري صغير

١٨ ـ بوابة في مدخل عمان

(١) هذه العبارة بين الحاصرتين شرح للجملة العربية باللغة الإنكليزية. على حين أن كلمة القصير في اللغة العربية قد تعني القصر الصغير كما يمكن أن تعني مع بعض التجاوز (الحصن الصغير) كما ذهبت المؤلفة. (المترجم)

ومدماكين فوق طنف جميل ملتف حول البناء. وعلى بعد مائتي ياردة من القصر أو الحصن (تطلق العرب على كل خربة إما اسم قصر أو دير) يوجد معبد مخرب. وكان من الواضح أنه استخدم في مرحلة لاحقة لأغراض أخرى غير تلك التي أنشئ من أجلها. وذلك لأن هناك سوراً مخرباً حول صفين من سبعة أعمدة وجدراناً متصالبة صعبة التفسير باتجاه النهاية الغربية لصفي

١٩ ـ معبد خريبة السوق

الأعمدة. ويبدو أنه كان هناك باحتان إلى الخلف لأننا إذا سرنا أبعد إلى الغرب نجد تجمعات من القواعد المحطمة في الأرض. وتقع البوابة إلى الشرق وقد زينت عضاداتها بنقوش جميلة. عصائب مسطحة، سعف نخيل، عصائب مسطحة أخرى نتوءات مستديرة معمولة مع أوراق كرمة، عقود من الخرز مع بكرة، بيضة وسهم مريش وسعف نخيل مستديرة مرة أخرى على حلية متموجة جانبية، ويشبه العمل إلى حد بعيد ذاك الذي يشاهد في نقوش تدمر، وهو لا يستطيع أن يضاهي التخريمات الحجرية في قصر المشتى. وإضافة إلى ذلك فإنه يمنح إحساساً بالرصانة أكثر مشاكلة وقربا من النماذج التقليدية، مما

٢٠ ـ ضريح في خريبة السوق

يمكن أن يشاهد هناك. وإلى الشمال من المعبد على قمة أعلى قليلاً يوجد خربة أخرى يبدو وكأنها مقبرة ثانية. إنها تبدو وكأنها نوع من الحجارة المستطيلة الموضوعة فوق بعضها بعناية ولكن بدون ملاط، وثمة درج في الزاوية الجنوبية الشرقية يقود إلى داخل ما يشبه حجرة انتظار على نفس مستوى سطح الأرض من الجهة الشرقية بسبب انحدار التلة.. وكان هناك عمود يرتكز على الجهة الخارجية لهذه الغريفة وربما كان الأثر هو لصف من

الأعمدة التي تزخرف واجهة المبنى الشرقية. وقد وضعت ستة نواويس حجرية بالطول، اثنان على طول كل جدار من الجدر الباقية باتجاه شمال جنوب، وإلى الغرب وأسفل قاعدة الأعمدة على طرفي الدرج تمتد حلية معمارية بارزة لنتوء مستدير واضح بين عصابتين، كما تبدو الزينات نفسها على الجهات الداخلية للنواويس. وترتفع واجهة الدعامة على الجانب الجنوبي بأسلوبين لإدخال الزينة، وفيما عدا ذلك فإن البناء بسيط تماماً على الرغم من أن بعض الحطام المبعثرة على الأرض فوق العشب مزخرف بأوراق كرمة مرسلة، وتعيد هذه المقبرة إلى الأذهان شكل القبر الهرمي السائد في شمال سوريا، ولا أتذكر أي مثال آخر له في الجنوب. وقد تمثل نصباً تذكارياً مع واجهة معمدة الذي هو واحد من دانا الجنوبية العظمى، وقطع من درج كرمي الذي ربما كان قسماً من بناء على سطح معمد.

عندما عدت إلى خيمتي قبيل غياب الشمس بقليل علمت أن الولد الذي أرسلناه في الصباح قد تباطأ في الطريق، وارتعبت بسبب تأخره عن الوقت وعاد بدون أن ينجز مهمته. وكان هذا خبراً مزعجاً على نحو كاف، ولكنه لم يكن شيئاً قياساً بإزعاج الطقس في اليوم التالي. ومشيت لأستكشف السهل العظيم الذي أغفلناه بسبب الضباب والمطر. وهاجمتنا الرياح الجنوبية العاصفة طوال اليوم ضاربة جدران خيمتنا القماشية. وفي المساء أتى نمرود بأخبار يقول فيها: إن كهفه قد امتلأ بالضيوف. ولم يكن هناك إلا عدداً محدوداً جداً من خيام الصخور على بعد ميل أو ميلين منا (لقد كان معظم أفراد القبيلة ما يزالون بعيدين في الشرق حيث طقس الشتاء أقل قسوة) وقد كان مطر اليوم كثيفاً جداً بحيث يتعذر إقامة مساكن للرجال، فركبوا خيولهم

وذهبوا إلى تل طناب تاركين النساء والأطفال ليبدلوا أروقة بيوتهم بأنفسهن أثناء الليل، وقد يكون الجمع ابن الساعة قد أوجد تجاذباً بين الرجال بعد يوم طويل بللنا جميعاً، فانضمت للجمع.

كان كهف نمرود يمضي بعيداً داخل التل بحيث يمكن أن يصل إلى منتصفه، وكانت الغرفة الكبيرة الأولى طبيعية على نحو واضح فيما عدا أماكن النوم المنخفضة ومعالف الغنم التي كانت تتناطح حول الجدران. ويقود ممر ضيق متعرج في الصخور إلى غرفة أخرى صغيرة، كما كان هناك غريفات أخرى أبعد اضطلعت باكتشافها بثقة، ولكن الهواء الحار الكثيف وحشود الذباب التي لا تحصى، لم تشجعني على المضي في الاستكشاف أبعد. لقد قدّم الكهف في ذلك المساء مشهداً بدائياً ومتوحشاً بشكل يكفي لإرضاء أكثر الأرواح حباً للمغامرة، كان العرب الذين يتراوح عددهم ما بين العشرة إلى الاثني عشر يحتذون في أرجلهم صُرْمَان[1] جلدية حمراء وعباءات مخططة مشبعة بماء المطر، يجلسون حول نار ضعيفة قد وضع فوق رمادها ثلاث دلال من القهوة صنعت خصيصاً للمجتمعات الصحراوية. وكانت تجلس خلفهم امرأة تطبخ أرزاً على نار أشد اشتعالا بحيث ينير وهجها أنحاء الكهف ويظهر أغنام نمرود وهي تمضغ التبن الموضوع في معالفها المنقورة في الصخر، ونظف لي مقعد خالٍ من الوحل في حلقة الرجال، وجهز فنجان القهوة ودار الحديث واستمر ربما مدة كافية لأن يعبئ عربي غليونه ويدخنه خمس مرات. ودار بشكل رئيسي حول ظلم الحكومة أو التهديد باستخدام القوة المسلحة

(١) الصرماية: نوع خاص من الأحذية كان وجهها من جلد يصبغ باللون الأحمر غالباً، وأسفلها مسطح بدون كعب، وكانت شائعة في أوائل القرن العشرين وبقيت مستعملة حتى أواسطه. (المترجم)

لسوء الحكم الذي يشكل الخطر الدائم على حواف الصحراء. وقد سرعت ضرورات الحرب النشاطات المؤذية في هذه السنة، وقد تمت مصادرة الخيول والجمال بالجملة على طول حدود البادية دون أي أمل في التعويض بالمال أو بأي شيء غيره، وقد أرسل العرب مواشيهم وخيولهم وجمالهم الأساسية بعيداً إلى مسافة خمسة أو ستة أيام داخل الصحراء حيث لايجرؤ الجنود على الذهاب إلى هناك، وقد عمل نمرود الشيء نفسه فلم يبق إلا دواب الحراثة. وتتابع مضيفوي واحد إثر الآخر في سرد الحكاية، ولعلعت الأصوات القوية في أرجاء الكهف..

٢١ ـ عرب البلقا

والله ومحمد رسول الله لقد استنزلنا اللعنات على الخيالة الشراكسة وسوف.. وسوف نرد هذه القوة من الخيالة ونجعلهم يترنحون على خيولهم، وبين حين وآخر كان ينحني رأس بشعر أسود متجعد ملبد حول الوجنتين تحت الحطة المخططة باتجاه الرماد المتوهج ليلتقط جذوة من أجل غليونه. كما قد تمتد يد أخرى إلى دلال القهوة أو إلى نار الطبخ المتوهجة تحت كومة من الشوك، وتجعل النار القوية المتأججة الذباب يئز والأبقار تتحرك على نحو غير مريح. ولم يكن نمرود سعيداً لرؤية مخزونه من القش والحطب يذوب أمام عينيه وقهوته المحمصة تدق في قبضات متلاحقة في المهباج (Mortar) (والله إنهم يأكلون قليلاً عندما يأكلون في بيوتهم ولكن أكلهم يتضاعف هم وخيولهم عندما يكونون في ضيافة أحد) والقمح قليل في هذا الوقت من السنة، ولكن كلمة ضيف مقدسة من الأردن حتى الفرات. ونمرود يعرف أن قسماً كبيراً من مكانته وأمنه يعود إلى سخاء يده وكرمه الذي يجب أن يشمل كل من يأتيه بصرف النظر عن الزمان أو المكان، وأخذت نصيبي من السخاء بتوزيع علبة من السجائر وقبل أن أذهب كان هناك شعور بالصداقة قد توطد بيني وبين رجال بني صخر.

لم يكن اليوم التالي أفضل بكثير من اليوم الذي سبقه فقد كان البغالة أكثر رغبة في عدم الخروج من الكهف وتعريض حيواناتهم للمطر في الصحراء المكشوفة، وقد وافقت على مضض على تأجيل الرحلة ووافقت على إرسالهم إلى مادبا التي تقع على بعد ثلاث ساعات من موقعنا لشراء الشوفان للدواب محذرة إياهم من ذكر المكان الذي قدموا منه. وقد خف المطر قليلاً بعد الظهر، فركبت عبر السهل باتجاه الجنوب إلى القسطل وهو عبارة عن حصن روماني يقع على أحد التلال.

ومثل هذا الحصن ليس نادراً على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وقد قلدهم الغساسنة فيما بعد عندما وطدوا أقدامهم في الصحراء السورية إذا كان قصر المشتى كما يظن يعود إلى عهدهم مع ملاحظة إن هناك العديد من القصور المبنية على مثاله في المنطقة[1]. كان حصن القسطل مكوناً من سور قوي مستدير له مدخل واحد من الجهة الشرقية، وأبراج ناتئة مستديرة على الزوايا من كل الجهات. ويوجد في داخله سلسلة من الأقبية المتوازية وفسحة مكشوفة في الوسط. والمخطط العام للحصن يختلف قليلاً عن ذلك الموجود في القلعة البيضاء في الصفا وعن الخانات المعاصرة[*]. ويوجد إلى الشمال بناء منفصل ربما كان البريتوريوم، ومنزل قائد حامية القلعة ويتكون من قبو كبير مع ساحة مسورة أمامه، وبرج مستدير في الزاوية الجنوبية الغربية. ويوجد درج حلزوني في داخل البرج وعصابة تزيينية حول المدخل المكون من إطار في الأعلى وإفريز محزز في الأسفل وبينهما فسحة ضيقة مزينة بصور من الطراز الدوري، والبناء جيد على نحو غير عادي والجدران ذات سماكة كبيرة وبمثل هذه الدفاعات التي كانت ممتدة على طول الحدود ربما كانت المدينة الرومانية تنام قريرة العين من عاديات الليالي.

عندما مررت بالقسطل قبل خمس سنوات كانت غير مسكونة والأراضي المحيطة بها غير مزروعة، ولكن عائلات قليلة من الفلاحين قد استقرت الآن

(١) لقد ثبت بعد التحريات أن قصر المشتى يعود إلى العهد الأموي وقد بنى أمراء بني أمية عدة قصور في البادية السورية على مثاله. (المترجم).

(*) لقد تم طبع مخططات رائعة وصور للقلعة من قبل برونو ودومازووسكي في مجلدهما الثاني لعملهما الكبير البادية العربية، ولم يكن هذا المجلد قد طبع عندما زرت القسطل. (المؤلفة)

تحت الأقبية المخربة وسيقان الحنطة الخضراء النضرة تتراقص في السهل تحت الأسوار. ظروف سوف تسعد وتدفئ قلوب محبي الإنسانية، ولكنها سوف تجعل الرعشة الباردة تسري في صدور محبي الآثار. إذ لا يوجد مزيل للآثار مثل شفرة المحراث، ولا مخرب لها مثل الفلاح الذي يبحث عن الحجارة المنحوتة من أجل أن يبني موقده. كما لاحظت علامة أخرى على انتهاك قيم المدنية من خلال سلوك اثنين من الجنود نصف جائعين، وهما حارسا أقرب محطة لسكة حديد الحجاز، اسمها محطة المشتى على اسم قصر المشتى المخرب الذي يقع على بعد أميال قليلة إلى الشرق، وكان سبب زيارتهم للموقع دجاجة هزيلة أمسكها أحدهم في يده، لقد سحبها من جانب زوجها الأعجف في فناء القلعة ـ وهو موضوع من الأفضل عدم البحث فيه، وذلك لأن الجائعين لا يعترفون بالقانون ـ ولم أكن شغوفة على نحو خاص لأن أتواجد في هذه المناطق النائية الخاضعة لمراقبة المسؤولين في عمان، ولذلك فقد غادرت بسرعة بعيداً باتجاه الشرق إلى زيزا.

٢٢ ـ آثار كنيسة مخربة في مدينة مادبا

لقد ملأت مياه الأمطار مسالك الصحراء، وهي غالباً لا تجري بمثل هذه الكثافة والعمق مثلما هو الحال في المسلك الذي كان علينا أن نعبره عصر ذلك اليوم. لقد ملأت المياه حتى الحافة، صهريج زيزا الروماني، وهكذا فإن عشيرة الصخور لن تعاني من الحرمان من الماء طيلة الصيف التالي. فالخرائب الأثرية تبدو أكثر أهمية بكثير من تلك الموجودة في القسطل، فلابد أن مدينة كبيرة كانت هنا في يوم من الأيام؛ لأن أساسات المنازل تغطي مساحة كبيرة من الأرض. وربما كانت القسطل القلعة الحصينة التي تحرس هذه المدينة، ويتقاسمان معاً اسم زيزا الذي ذكر في النوتيشيا : (Notitia) (ايكوايتس دالماتيشي ايلليرشيانا زيزا) كما أن هناك قلعة سراسينية (Saracenia) أعاد ترميمها سقطان شيخ الصخور، ثم فرشها كما يقول نمرود على نحو رفيع غير معروف في الصحراء. ولكنها أصبحت الآن تحت حكم السلطان؛ لأنها واقعة ضمن أراضي أملاك الدولة وهكذا عادت حطاماً. والتلال الواقعة إلى الخلف ممتلئة بقواعد الأبنية المتناثرة هنا وهناك، وبينها آثار مسجد مازال محرابه في الجنوب ماثلاً للعيان، وقد تمركزت في قلعة زيزا حامية عسكرية مصرية أيام إبراهيم باشا، وقد كان جنوده هم الذين أكملوا تهديم الأبنية القديمة. وقد صرح الأعراب بأن العديد من المباني الضخمة بما في ذلك عدة كنائس كانت قائمة مصانة بحالة جيدة تقريباً قبل مجيء المصريين، وجعلنا طريق عودتنا إلى حيث نقيم على حافة جسر سكة الحديد، وتناقشنا أثناء الطريق عن الفوائد المحتملة لارتفاع الأرض المفاجئ على الطريق نفسه، وكان نمرود شاكا حول هذا الموضوع، كان ينظر بارتياب إلى الموظفين والجند. وقد كان لديه في الواقع أكثر من سبب للخوف من غزوات الموظفين الذين لا يمكن استرضاؤهم والتخفيف من جشعهم بكرم الضيافة أكثر من الأعراب الذين

لديهم العديد من العوامل التي تضطرهم لإيذائه أكبر الأذى.. ولم يرسل في السنة الماضية إلا كميات قليلة من أحمال الحنطة إلى دمشق بوساطة شاحنات القطار.. صحيح أن الشحن بالقطار أسهل وأسرع من النقل بجماله هذا إذا وصلت الشحنة على الإطلاق.. ولكن أكياس القمح عندما تصل إلى المدينة تكون أقل بكثير منها عندما حمّلها نمرود بحيث تضيع الفائدة. وقد يتحسن الوضع مع الزمن. وذلك عندما يسمح ببقاء المصابيح والوسائد وكل وسائل الراحة باستثناء المقاعد العارية على حالها سليمة على الشكل الذي اشتريت فيه والهدف الذي صنعت من أجله. كما تحدثنا عن الخرافات والمخاوف التي تقبض القلب أثناء الليل، وقال إن هناك مناطق لا يمكن للأعراب أن يغامروا بالاقتراب منها بعد حلول الظلام مثل الآبار التي تقطنها

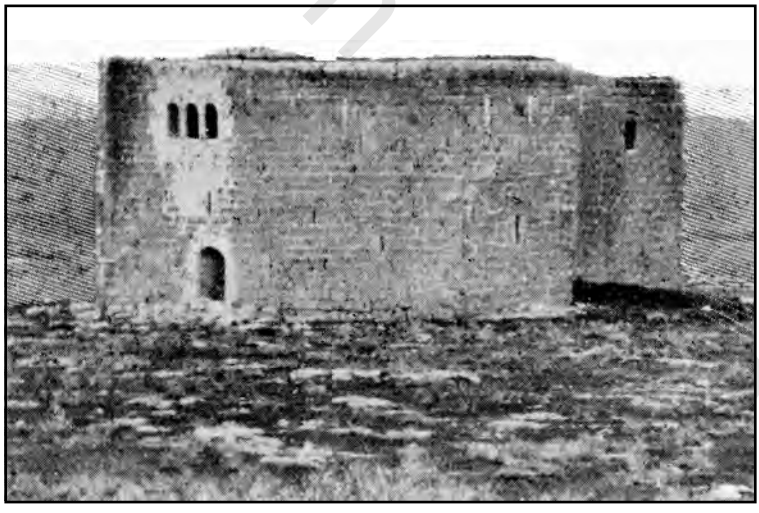

٢٣ ـ قلعة زيزا

الأشباح والتي لا يجرؤ العطشان على الاقتراب منها ومثل الخرب التي يخشى الاقتراب منها الضعيف المرهق الباحث عن المأوى ووهدات الأرض المنعزلة

التي لا تصلح للتخييم. وممَّ يخافون؟ الجني، ومن يستطيع أن يقول للناس ما يخيفهم؟ وهو نفسه قد جعل أعرابياً يجفل إلى درجة فقد معها صوابه من الخوف وذلك عندما قفز أمامه عارياً خارجاً من بركة ماء منعزلة في وقت الفجر نصف المظلم ، وقد ركض الرجل عائداً إلى خيمته وأقسم أنه رأى جنياً، وإن على أفراد عشيرته أن لا ينزلوا إلى الماء حيث يقيم الجني، وقد ذهب نمرود إلى الخيمة ضاحكاً وأخبره حقيقة ما حصل.

ولم نعد رأساً إلى خيمنا، فقد دعينا للقاء ذلك المساء عند الشيخ نهار شيخ بني صخر الذي كان في الليلة الماضية ساهراً معنا في كهف نمرود، وبعد المناقشة تقرر أن دعوة العشاء هذه يجب أن لا تقبلها واحدة في مثل مقامي (وبشكل عام) قال نمرود (يجب أن لا تقبلي إلا دعوة شيخ كبير وإلا فإنك سوف تقعين في أيدي أولئك الذين يدعونك لتلقي هداياك) وإن نهاراً رجل شريف على الرغم من أنه مسكين. وهي كلمة تعكس كل أنواع عدم الاحترام والضعف من الشريف الفقير إلى البلاهة إلى الدرجات الدنيا من الازدراء.

٢٤ ـ بدو نصارى من سكان الخيام

واستقبلني المسكين بإجلال كما تستقبل الأميرات، وأجلسني في صدر المجلس على بساط ممزق بين حفرة الموقد وبين الحاجز الذي يفصل مكان الحريم عن مضافة الرجال، وعقلنا خيولنا إلى أطناب البيت وقد أضفى هذا العمل قوة ومهابة لذلك البيت الهزيل، وجالت عيوننا من مكاننا في صدر الخيمة باتجاه السهول الممتدة إلى ما لا نهاية إلى الشرق تلال ووديان،علو وهبوط كما لو كانت الصحراء تتنفس بهدوء تحت الظلام الدامس.

إن بيت الأعرابي مفتوح دائماً باتجاه الريح فإذا ما تغير اتجاه الريح، تنهض النسوة فوراً وتغيرن مكان الرواق فتتغير واجهة البيت، ويتغير المنظر أمامه بالتالي، وتبقى واجهة البيت دائماً في الاتجاه الملائم. وهذا البيت صغير جداً وخفيف الحمل وثابت في الأرض على نحو جيد مقاوم للعواصف، والشقة المنسوجة من شعر الماعز تنتبج وتتماسك على نحو أفضل عندما تتبلل بالمطر بحيث تحتاج إلى أمطار شديدة مصحوبة برياح عالية حتى يتسرب الدليف إلى داخل البيت. وحمصت حبوب القهوة ودقت في المهباج، وكانت دلال القهوة تغلي ببطء على النار عندما ظهر ثلاثة أعراب من الجهة الشرقية للخيمة ووقفوا في مدخلها. كانوا مكتنزين عريضي الأكتاف وأسنانهم بارزة وشاذة على نحو لافت للنظر وكانوا يرتجفون من البرد نتيجة تبللهم بمياه المطر، ووسع لهم مكان في الحلقة حول النار ومدوا أصابعهم نحو اللهب، فيما استمر الكلام بغير انقطاع، لقد كانوا مجرد ثلاثة من قبيلة الشرارات قد جاؤوا لشراء قمح من مؤاب، وعلى الرغم من أن قبيلة الشرارات من أكبر القبائل وأقواها وقد اشتهروا بجمالهم المولدة إلا أنهم محتقرون ولا يوجد بين عرب البلقا من يقبل التزاوج معهم. وليس لديهم مرابع ثابتة وحتى في الصيف الشديد الجفاف يظلون في جوف الصحراء غير عابئين حتى بوجود الماء لعدة أيام. ودار الحديث في الحلقة المحيطة بنار نهار حول رحلتي، وكان أحد عبيد

الصخور وهو زنجي قوي البنيان ذكي الملامح خائفاً من مرافقتي كدليل في الطريق إلى جبل الدروز ولكنه وافق في النهاية على مرافقتي على أن يتركني بمجرد الوصول إلى حدود منطقة هؤلاء المقاتلين الجبليين الأشداء، ويعود إلى ديرته ـ يوجد عداء دائم مستحكم بين الدروز وبين بني صخر ـ يعامل الزنوج من عبيد الصخور معاملة جيدة جداً من قبل سادتهم الذين يقدرون قيمتهم، ولهم مكانهم المعتبر في الصحراء، وهذا وضع جيد يعكس تقدير هذه القبلية العظيمة لخدماتهم، وكنت نصف ميالة لقبول العرض المقدم، على الرغم من احتمال العودة من حيث انطلقت فيما إذا ما قتل الزنجي في أول قرية درزية نصلها، عندما قطع سلسلة أفكاري دخول ضيف جديد، كان شاباً طويلاً ذا وجه جميل أقرب إلى الشقرة بجدائل طويلة بنية تقريباً، وما إن اقترب حتى وقف نهار وبقية شيوخ الصخور للترحيب به، وقبلوه كل بدوره على الوجنتين قبل أن يدخل الخيمة، ونهض نمرود وصرخ حالما اقترب الضيف أكثر (جيد، الحمد لله، من معك ؟) ورفع الضيف يده مجيباً (الله).

٢٥ ـ مجموعة أو فريق من عرب الصخور

لقد كان وحيداً، ودون أن يبدو عليه أنه لاحظ بقية الجماعة أحاطت عيناه بشيوخ الشرارات الثلاثة يأكلون لحم الضأن والخاثر في مدخل البيت والمرأة الغريبة بجانب النار، ومع غمغمته بالتحيات عبر إلى مؤخرة الخيمة رافضاً طعام نهار.. كان اسم هذا الشاب قبلان من البيت الحاكم في الدجا وهو ابن عم شيخ العشيرة، وقد سمع كما اكتشفت في النهاية عن حاجة نمرود إلى دليل لرحالة غريبة عبر الصحراء، وقد جاء من أجل اصطحابي إلى مضارب عمه الشيخ، ولم يكن قد مضى على وصوله أكثر من خمس دقائق عندما همس نهار بعض العبارات في أذن نمرود فالتفت هذا الأخير إلي قائلاً حيث إننا تعشينا فمن الأفضل الذهاب وأخذ قبلان معنا. وقد شعرت بالدهشة بسبب السرعة في قطع سهرة الدردشة هذه، ولكني كنت أعرف أكثر أن علي عدم الاعتراض، وبينما كنا نخب جيادنا عبر أرض نمرود المفلوحة صاعدين تل طناب فهمت السبب. لقد كان هناك دم بين الدجا والشرارات. وقد عرف قبلان من أول نظرة نسب ضيوف أصدقائه، ولذلك انسحب بسكون إلى أعماق الخيمة، فهو لا يمكن أن يضع يده في نفس الصحن مع أعدائه ـ ويعرف نهار. ومن لا يعرف ؟ صعوبة الوضع ـ ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ بموقف الشراراتيين، ولئلا يقع ما لا تحمد عقباه، اقترح على نمرود أن ننسحب بسرعة، وفي صباح اليوم التالي صفا الجو مجازياً لا فعلياً، وأبقى المطر المنهمر بغزارة الطرفين المتعاديين متحلقين حبيا حول نار نمرود في الكهف.

كان مطر اليوم الثالث غزيراً إلى درجة قد لا يستطيع العابر تحمله، وقد نسيت في هذا الوقت الجو غير الرطب والإحساس بدفء القدمين وجفاف الفراش والأغطية، وقد قضى قبلان هذا الصباح ساعة معي من أجل معرفة ما أريد. وقد شرحت له أن يأخذني عبر الصحراء بعيداً عن أي مركز

عسكري وأن يتركني عند بداية سفوح الهضاب الشرقية، وأنا لا أرغب أكثر من ذلك. وفكّر قبلان قليلاً ثم قال: (هل تظنين يا سيدتي أنك سوف تخوضين صراعاً ضد العسكر، لأنه إذا كان الأمر كذلك فسوف آخذ بندقيتي) وأجبت (إنني لا أريد أن أعلن حرباً مفتوحة ضد جنود السلطان، وأتصور أنه بقليل من الحيطة يمكن تجنب احتمال الصدام) وكان رأي قبلان أن الخطة قد تذهب أبعد من ذلك عندما يتحدث الرصاص؛ ولذلك فهو سوف يأخذ بندقيته في جميع الأحوال.

٢٦ ـ مَعْلَمْ روماني

لم يكن لدي ما أفعله بعد الظهر فلم أجد أفضل من مراقبة رجال قبيلة الشرارات وهم يشترون القمح من نمرود، وعلى نحو غير مناسب مع وضعي الحالي عاد بي الزمن آلاف السنين إلى الوراء متصورة رجال الشرارات وكأنهم أبناء يعقوب عندما هبطوا مصر لشراء القمح، واختلفوا مع أخيهم يوسف حول وزن أكياسه[١]. وكان القمح محفوظاً في آبار محفورة في الصخر تحت الأرض ويتم إخراجه مثلما يخرج الماء من البئر بوساطة دلو معدني وهو يخزن مع التبن من أجل ضمان حمايته على نحو أفضل، ولا يمكن أن يتلف إلا بفعل عامد.

(١) الحقيقة أنهم لم يختلفوا حول الوزن، وإنما حول وجود مكيال القمح في كيس أخيهم بنيامين كما يفهم من القصة أن عمال يوسف وضعوه عمداً هناك. (المترجم)

وشاركت الجمال في قطع حبل الصمت عن طريق العنين والبعبعة شأنها في ذلك شأن الأعراب أثناء تحميلها بأكياس القمح. وجلس مشايخ الصخور والشرارات على الحجارة حول جب القمح تحت السديم الممزوج بالرزاز، وهم يتمتمون بين فينة وأخرى: (الله ! الله !) أو يهتفون:

(هو رحيم ورؤوف!) وكان القمح المغربل في كثير من الأحيان يهبط مرة أخرى مختلطاً بالقمح غير المغربل ـ ويتلو ذلك حوار على النحو التالي نمرود: عليك! عليك يا ولد! الله يخرب بيتك! الله يعكر أيامك!

بنو صخر: بوجه نبي الله عليه السلام!

أحد الشرارات: بصوت محبط: الله ومحمد نبي الله عليه السلام.

مجموعة من الحفاة يرتدون الفراء: ذهب، ذهب! مطر! وذهب!

نمرود: اسكتوا يا إخوان انزلوا إلى الجب وطالعوا قمح، الجب دافئ.

بنو صخر: الحمد لله! القوي القادر.

أصوات ورغاء الجمال..

أحد الجماعين: هس! يا ملعون يمكن أن تزلق بالطين، لعنة الله عليك! الصخور في تناغم: الله، الله، بنور الله.

في الغسق ذهبت إلى خيمة الخدم وساعتها كان نمرود يتحدث هامساً عن جريمة قتل وهم جالسون حول النار التي يُطهى عليها طعامنا (عندما كنت صبياً) قال: (ومنذ زمن قريب) لم تكن تستطيع أن تعبر الغور بأمان، كان لدي فرس مشى بي ـ والله ـ منذ الصباح حتى المساء من مزيريب في حوران حتى

السلط، دون توقف، وكنت معروفاً من جميع الغوارنة، وفي إحدى ليالي الصيف كنت مضطراً للذهاب إلى القدس، الله أعانني، وكان علي أن أركب فرسي، كان الماء في نهر الأردن منخفضاً وعبرت المخاضة لأنه لم يكن هناك جسر، وعندما وصلت إلى الضفة الأخرى من النهر سمعت صياحاً وأزيز رصاص، فاختبأت بين أعشاب الطرفاء أكثر من ساعة حتى غاب القمر ومن ثم تابعت طريقي بأمان. وفي مدخل الهضاب الموحلة ابتعدت الفرس عن الطريق، ونظرت إلى الأسفل فرأيت جثة رجل كان عارياً ومضروباً بعدة طعنات سكين، وكان ميتاً تماماً، وبينما كنت أحدق بالميت قفزوا نحوي من بين التلال الموحلة، كانوا عشرة خيالة، وكنت وحيداً، وانسحبت نحو الحشائش الكثيفة وأطلقت من مسدسي طلقتين، ولكنهم أحاطوا بي ورموني من على ظهر الفرس، وقيدوني ثم أركبوني مرة أخرى عليها وساروا بي، وعندما وصلوا بي إلى حيث أرادوا التوقف ترجلوا عن جيادهم وأخذوا يتناقشون فيما إذا كان عليهم أن يقتلوني. ثم قال أحدهم دعونا ننهي الموضوع واقترب مني ونظر في وجهي وكان الفجر قد بزغ وصاح: إنه نمرود.. ! لأنه عرفني، وطلبت عونه، وهكذا فكوا قيدي وتركوني أذهب فركبت فرسي وتابعت إلى القدس.

وتابعت مع البغالة قصة نمرود.. منقطعي الأنفاس مستمتعين بالقصة تلو القصة..

(يوجد عادات حسنة وأخرى رديئة عند الأعراب) قال نمرود.. ولكن الحسنة كثيرة، فعندما يريدون إنهاء صراع دموي يأتي الطرفان المتعاديان إلى خيمة من وقع عليه الأذى، فيأخذ سيد البيت سيفه ويرسم دائرة على الأرض داعياً باسم الله.. ثم يأخذ قطعة صغيرة من قماش الخيمة وقبضة من رماد

الموقد وينثرها داخل الدائرة، ثم يضرب حدود الدائرة بسيفه سبع مرات، ثم يقفز القاتل إلى داخل الدائرة ويتقدم أحد أقرباء القتيل ويقول: (أنا أتحمل مسؤولية جريمته) ومن ثم يتحقق السلام.

وللنساء يا سيدتي مقام كبير في القبيلة، وللعذراوات مكانة خاصة فإذا قالت إحدى العذارى: أنا أريد فلاناً زوجاً لي، فإن عليه أن يتزوجها وإلا فإنها سوف تكتسب العار، وإذا كان لدى من اختارته أربع زوجات فإن عليه أن يطلق واحدة ليتزوج العذراء. هذه هي عادات الأعراب. والتفت إلى البغال الدرزي قائلاً: يا محمد (احترس، فمضارب الصخور قريبة والدروز وبنو صخر أعداء فإذا ما عرفوك فسوف يقتلونك قطعاً، بل إنهم لن يقتلوك فحسب وإنما يشوونك على النار حياً، ولن تستطيع السيدة حمايتك ولا أنا) وهذه مكرمة تعكس خلق صديق نهار، الذي تبادل معي كرم الضيافة مقابل المنديل الذي أهديته له، كما أخذ جميع أعضاء المجموعة الصغيرة التي كانت متحلقة حول النار بطريقة أو أخرى مقابل هداياهم، ولكن ميخائيل كان رصيناً بالمناسبة.

(لا تفكري بها يا سيدتي) قال ذلك بينما كان يضع بعض الخضراوات المطبوخة في الصحن (سوف يبقى مسيحياً حتى نصل جبل الدروز ولن يكون اسمه هناك محمد وإنما طريف لأن هذا هو الاسم الذي يستعمله المسيحيون).

وهكذا بدلنا ديانة محمد المندهش وعمدناه قبل أن نأخذ اللحمة المقلية من مقلاة القلي.